المقاهي والتثاقُف

ارتبطت المقاهي بالكثير من الأعمال الأدبية العربية التي رصدت عوالمها وتصرفات روادها وحالاتهم الاجتماعية والثقافية على اعتبارهم نموذجاً مُصغّراً يشمل شرائح المجتمع.

ففي رواية «قصر الشوق» وصف نجيب محفوظ أحد المقاهي القاهرية في خان الخليلي فقال: «بدا المقهى المدفون كجوف حيوان من الحيوانات المنقرضة طمر تحت ركام التاريخ إلا رأسه الكبير فقد تشبث بسطح الأرض فاغراً فاه عن أنياب بارزة على هيئة مدخل ذي سلّم طويل وتحته في الداخل صحن واسع مربع الشكل تتوسطه فسقية رصدت على حافتها أصص القرنفل واحدقت بها من الجهات الأربع آرائك فرشت بالحصير المزركش والوسائد، والجو فيه رطب.. وقد انطوت كل جماعة على نفسها تدخن النارجيلة وتحسو الشاي وتهيم في دوشة لا نهاية لها، تكاد تشملها نغمة صِبا وانية متصلة إلى أن تقطعها في فترات متباعدة سعلة أو ضحكة أو قرقرة مدخن منهم».

ولا يكتمل الحديث بالمقاهي بلا تطرق إلى القهوة والتبغ والنارجيلة، فالقهوة ينسَب اكتشافها إلى أحد الرعاة، الذي كان يرعى قطيعه في سفح أحد الجبال فلاحظ بعض العنزات ترعى أوراق شجيرة وتأكل حبوبها، فلم تلبث أن أصيبت بحالة من الخدر، ذهل الراعي، وقرّر أن يتذوّق حبوب تلك الشجيرة، وبذلك تمّ اكتشاف القهوة، إذ اتضح أن هذا النبات هو البن. أما مكان اكتشافه فكان اليمن السعيد!

تقول المصادر التاريخية أن القهوة أصبحت مشروباً عادياً في معظم البيوت العربية مع مطلع القرن السابع عشر، وبدأت تغزو أوروبا منذ ذلك الحين.

أما التبغ الذي أصبح من أساسيات المقاهي، فيرقى تاريخ اكتشافه إلى تاريخ اكتشاف أميركا في أواخر القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر حين لاحظ الأوروبيون سكان القارة الجديدة يدخنون هذه المادة التي تخلق دواراً خفيفاً ومنها انتقل التبغ إلى أوروبا ثم إلى الشرق وسائر انحاء العالم. وأما النارجيلة فهي مشتقة من النارجيل وهو اسم يُطلق على جوز الهند وقد سمّاها المصريون «الجوزة»، صُنعت النارجيلة في بداياتها من جوزة الهند مفرغَة مثقوبة من طرفيها ثم تطورت الى شكلها الحالي.

على الرغم من تواصل كتاباتي اليومية، ردتُ المقاهي على وجه شبه يومي ولمّا أزل. ديدني في ذلك أساساً محاولة الإطلاع على نبض الحياة في الوطن وتحت كل سماء. أحاول، ما استطعت، أن أردّ بعض الشيء هجمات التخلّف وأعزّز الروح النقدية لدى أبناء جلدتي لئلّا يظلّوا متقهقرين أو يستمروا في الغرق في أمواج بعض الحضارات أو الممارسات الملتوية. ما يهمّني في لقاءاتي العلنية أو كتاباتي، أن أجعل ناسنا ينهضون من سباتهم وينفضون عن مناكبهم غبار الذلّ والخمول.

ارتياد المقاهي عادة مستحبّة، وهي، في أدنى الحالات، تنبّه بقهوتها الأذهان وتستنهض الهمم على الرغم من الدخان الذي قد يجلب الأمراض، وقد شهدت بعض مقاهينا الصامدة ولادة تيارات فكرية وأدبية وحتى سياسية، تقوم فعلاً بدورها الفاعل والمؤثّر في أعماق المواطن المأزوم على العموم.

د. جهاد نعمان

أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه